مادة (كلم) وتصريفاتها في القرآن الكريم – دراسة دلالية –

د. انتصار الشرع
جامعة بابل/ كلية الدراسات القرآنية

المقدمة

يُعَدُّ الحرج أحد أوجه معاناة الباحث في القرآن الكريم، لقداسة هذا الكتاب المبارك، ولأنه حمّال أوجه . كما يُروى . فليس للباحث أن يبُتَّ برأيه في مسألة، أو قضية قرآنية. لكن هذا ليس بعذر للابتعاد عن الدراسة في القرآن، بل هي دعوة للإبحار في البحث القرآني، فعلى الرغم من فيض الدراسات القرآنية بشتى اتجاهاتها، لا زالت بنا حاجة إلى مزيد من تلك الدراسات التي تفتح بدورها آفاقاً إلى دراسات، ودراسات. وهذا هو سرُّ الإعجاز القرآني فكلّما بعُدَ عهدُ النّزولِ غدا القرآنُ معيناً غّضًّا ينهلُ من الصادرُ والوارد، إنَّ الرَحمةَ الإلهية تفتحُ خزائنَ علومها بمجرّد شروع الباحث فيما نوى، فينهلَ منها ما شاء. ومن فيوض هذه الرّحمة الإلهية ومضت فكرةُ البحث . مادّة (كلم) وتصريفاتها في القرآن الكريم دراسة دلالية.

الكلام لغة واصطلاحاً

الكليم الذي يكلمك، وكلّمه تكليماً وكلاماً مثل كذّبه تكذيباً وكَذاباً. وكالَمَهُ: جاوبَهُ، وتكالَما بعدَ التّهاجُرِ، فأصبحا يتكالمانِ، ولا تقُلْ يتكلّمانِ. والكلماني: المِنطيق [١]، وهو اسم لكل ما يتكلم به مفيداً كان أو غير مفيد. وفي (كلمة) ثلاث لغات: كَلِمَة، وكِلْمَة، وكَلْمَة. والأولى حجازية وتُجمع على الكَلِم، والأخريان تميميتان وتجمعان على الكِلَم[٢].

واصطلاحاً: الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير[٣]. وقيل: الكلام ما كان مكتفياً بنفسه، وهو الجملة[٤].

أما في اصطلاح النحويين فهو: اللفظُ المفيدُ فائدةً يحسُنُ السكوتُ عليها، فالكلام هو اللفظُ الموضوع لمعنى غير مفرد، أي: مركب من اسمين ؛ نحو: اللهُ أكبرُ، أو من اسمٍ وفعلٍ ؛ نحو: محمّدٌ قامَ، أو من فعل واسم ؛ نحو: قامَ محمّدٌ.

واللفظُ: جنسٌ يشملُ الكلام، والكلمة، والكلم، ويشمل المهمل والمستعمل، والكلمة: اللفظُ الموضوع لمعنًى مفرد، اسم، أو فعل، أو حرف، وقد تطلق على الكلام ؛ فيثال: (لا إله إلا الله) كلمة الإخلاص[٥].

أما الكَلِم؛ فهو: جمع كَلِمَة كما أشرنا وهو ما تركّب من ثلاثة كلمات فأكثر، سواء أكان لها معنى مفيد أم لم يكن. فالأول نحو: قد قامَ زيدٌ، والآخر نحو: إنْ قامَ زيدٌ، وقد يجتمع الكلام والكلم في اصطلاح وقد ينفرد أحدهما عن الآخر، فمثال اجتماعهما: قد قامَ زيدٌ، كلام لأنه تركّب من ثلاث كلمات ولإفادته معنى يحسن السكوت عليه، ويسمى كَلِماً لأنه تركّب من ثلاث كلمات، وأمّا انفرادهما فنحو: زيدٌ قامَ، كلام، وليس كلماً لأنه لم يتركّب من ثلاث كلمات، لكنه كلام لأنه تركّب من كلمتين وأفاد معنى يحسن السكوت عليه [٦].

وبعيداً عن تقسيم اللغويين لكل مفردة وما تعني لديهم نجد أن القرآن الكريم قد استعمل تصريفات هذه المادة ليجعل لكل لفظة معنًى خاصاً بها، وإن كان الجذر اللغوي واحداً، وهذا ما ستبينه الصفحات الآتية إن شاء الله.

١- ينظر اللسان (كلم) ٥٢٢./١٢

٢- السابق نفسه.

٣- السابق نفسه.

٤- ينظر: شرح ابن عقيل ١٤/١، ومغني اللبيب ٣٧٤/٢، والنحو الوافي ١٤./١

٥- ينظر: شرح ابن عقيل ١٥./١

٦- ينظر: السابق نفسه ١٥/١-١٦.

المبحث الأول

الاسم

١- كَلِمَة:

لهذه المفردة ثلاث لغات ؛كَلِمَ، وكِلْمَة، كَلْمَة. والأولى حجازية وبها جاء القرآن، وجمعها كَلِم وكِلْمة تميمية وجمعها الكَلَم[١]. وقد وردت هذه المفردة في القرآن في سبعةٍ وعشرين موضعاً[٢]، اختلف المراد منها باختلاف المواضع، وهذه النماذج منها:

قال تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} (آل عمران٤٥). المقصود بـ (كلمة) هي كلمة الإيجاد، أي قوله{كُنْ فَيَكُونُ} وإنما اختص عيسى (عليه السلام) بذلك لأنه لم تجر الأسباب المألوفة في ولادته، إذ كان وجوده بمجرد كلمة التكوين وكان نفس الكلمة كما يؤيده قوله تعالى: { وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ } (النساء ١٧١).

وقال تعالى: { أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} (آل عمران٣٩)دلالة على كون يحيى من دعاة عيسى، فالكلمة هو عيسى الذي بشرت به مريم[٣]. وإلى هذا الرأي ذهب أغلب المفسرين الذين فسروا هذه الآية[٤].

وقد يأتي معنى (كلمة) لمجموع أوامر الله ووعوده ونواهيه كما في هذه النصوص: قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} (الصافات١٧١). المراد بالكلمة ما وعدهم الله به من النصر والظفر على الكفار، وهي قوله: { كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي }(المجادلة٢١) [٥].

وقال: { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} (يونس١٩) . أنه تعالى . لا يعاجل العصاة بالعقوبة إنعاماً عليهم في التأني بهم[٦].

وقال: { أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ} (الزمر١٩).

المراد بكلمة العذاب هنا هو قوله تعالى لإبليس: { لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} (ص ٨٥)[٧].

وقال: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا}(الأعراف ١٣٧) يعني ما وعدهم الله به من إهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض[٨].

وقال: { وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (التوبة٤٠) (كلمة الله) هي الوعد بالنصر وإظهار الدين وإتمام النور[٩]، وغيرها من الآيات التي أدّت هذا المؤدّى أو قريباً منه.

١- ينظر اللسان (كلم)٥٢٢./١٢

٢- ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكرم: محمد فؤاد عبد الباقي: ٦٢٠.

٣- ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٧٧/٣، ١٩٢-.١٩٣

٤- ينظر: على سبيل التمثيل: معاني القرآن وإعرابه: ٣٤٦/١، والكشاف للزمخشري: ٣٥٣/١، ومجمع البيان: مج ٧٤٢/١.

٥- ينظر: فتح القدير: ٥١٩./٤

٦- ينظر: الكشاف: ٣٢٥/٢، ومجمع البيان: ١٨٥/٥.

٧- فتح القدير: ٤: ٥٧٠، .٥٩٥

٨- ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٣٠١/٢، والميزان.

٩- ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

وقد تأتي بمعنى مقالة الكفر، قال تعالى: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ}(الكهف٥)(كلمة) مقالة الكفر وادّعاء الولد لله سبحانه وتعالى[١].

وقال: {وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى}(التوبة ٤٠) و:{يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ}(التوبة٧٤) (كلمة الكفر) كل كلمة فيها معنى الجحد لنعم الله، فقد كانوا يطعنون في الإسلام[٢].

وتأتي بمعنى الإيمان، قال تعالى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (الزخرف٢٨) (كلمة) هنا بمعنى التوحيد، كأنه قال: وجعل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم وهم ذريته فلا يزال فيهم مَن يوحّد الله سبحانه وتعالى[٣].

وقال: {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا}(الفتح ٢٦)(كلمة) أشار إلى شعارهم: لا إله إلا الله، وكلمة التقوى توحيد الله، والإيمان برسوله عليه السلام[٤].

وقد يُراد بها مجمل معاني الإيمان والكفر من أفعال وأقوال، قال عزّ وجلّ: { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكُلَهَا.... وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} (إبراهيم ٢٤-٢٥- ٢٦)

هذه الكلمة ليست بما هي لفظ بل بما هي مشتملة على اعتقاد وعزم يستقيم عليه الإنسان ولا يزيغ عنه عملاً وهي التي يرتب الله عليها تثبيت الذين آمنوا، فالمراد بهذه الكلمة هو كلمة التوحيد والشهادة، وقيل: هي الإيمان، وقيل: هي القرآن، وقيل: هي الطاعات، و(كلمة خبيثة) هي كلمة الشِّرك[٥].

نتحصل ممّا مرّ من نصوص قرآنية أن هذه المفردة قد تنوّعت معانيها بحسب السياق الذي ذكرت فيه، وتغنينا تلك النصوص عن تكرار هذه المعاني.

٢- الكَلِم:

في المعنى اللغوي: اسم جنس لكلمة، ولا يكون أقل من ثلاث كلمات، وإن لم يحسن السكوت عليها ؛ كقولهم: إن قامَ زيدٌ[٦]. تكرّرت هذه المفردة في أربع آيات قرآنية، ثلاث منها اقترنت بالتحريف الذي قام به اليهود، قال تعالى: { مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ}(النساء٤٦)، و{ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} (المائدة١٣)، و{وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} (المائدة ٤١)، أي: يُغيّرون مواقع الألفاظ بالتقديم والتأخير والإسقاط والزيادة، أو بتغيير ما قُصد من الحق[٧]، ونستطيع أن نعد هذه المفردة من الألفاظ الإسلامية اتلي أعطاها القرآن الكريم صبغة جديدة. أمّا الآية الرابعة فخُصّت بما يصعد إلى الله من من القول والعمل، قال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} (فاطر١٠). الكلم الطيب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وهو ما فيه سعادة النفس وخلاصها، ويراد به الاعتقادات الحقّة التي يسعد الإنسان بالإذعان لها وبناء عمله عليها، والمتيقن منها كلمة التوحيد، والعمل الصالح وهما الكلم الطيب الذي بصعوده يتم التقرّب من الله سبحانه[٨].

١- مجمع البيان: ٣٤٥/٦، والكشاف: ٦٧٦/٢، وفتح القدير ٣٣٤./٣

٢- مجمع البيان: ٥/ ٩٨.

٣- فتح القدير: ٦٩/٤، وينظر: الرمز في قصة إبراهيم: ٥٤.

٤- معاني القرآن وإعرابه: ٢٣./٥

٥- ينظر: الكشاف: ٥٣١/٢. ٥٣٢، والميزان: ١٣/ ٥١.

٦- ينظر: شرح ابن عقيل: ١٤/١، ومغني اللبسب: ٣٧١/٢، واللسان: (كلم) ١٢/ ٥٢٢، والنحو الوافي: ١٤./١

٧- ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١٢٩/٢، ١٤٢، والميزان: ٢٥٩/٥، ٣٣٩، ومواهب القرآن: ٢٩٦/١.

٨- ينظر: الكشاف: ٥٨٤/٣ – ٥٨٥، والميزان ، والتفسير الكاشف: ٢٨١./٦

٣- الكلام:

الكلام عند النحاة: اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها[١]. ومن جهة الصرف: اسم مصدر للتكلم[٢]. ويسمى القرآن: كلام الله[٣]. وقد اقترنت هذه المفردة بلفظ الجلالة في ثلاثة مواضع[٤]، أضيفت إلى ياء المتكلم العائدة إلى الذات الإلهية في موضع واحد، قال تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ} (البقرة٧٥)، قيل إنهم السبعون الذين خرجوا مع موسى (عليه السلام) قد سمعوا كلام الله معه[٥]، وقيل: هو ما يُتلى في التوراة[٦].و قال تعالى: { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ}(التوبة٦)، أي: يسمع ما تدعو إليه ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر[٧]. وقال تعالى: { يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ}(الفتح١٥)، نزلت الآية بخصوص صلح الحديبية إذ أراد المخلفون أن يثبّطوا المسلمين ويغيروا وعد الله لهم بتعويضهم من مغانم خيبر، فقفلوا مودّعين[٨]، وقال تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي} (الأعراف١٤٤) كلام الله لموسى عليه السلام: تكليمه إياه[٩].

٤- التكليم:

مصدر كَلَّمَ يكلِّمُ كَلامً وتكْليماً[١٠]، جاء هذا المصدر مرة واحدة بصيغة المفعول المطلق مختصة بتكليم الله عزّ وجلّ لموسى (عليه السلام)، قال تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} (النساء١٦٤)، وهذا الكلام كان على وجه الحقيقة لأن الآية وردت في سياق وحي الله إلى رسوله.

إن التكليم تعليق الكلام بالمخاطب فهو أخص من الكلام، وذلك ان كل كلام ليس خطاباً للغير[١١] لذا خص موسى (عليه السلام) بالتكليم.

٥- كلمات:

وردت هذه المفردات في أربعة عشر موضعا[١٢]، منها قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} (الأنعام١١٥)، و{فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ} (الأعراف ١٥٨)، و{قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} (الكهف١٠٩)، و{وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} (الشورى٢٤)، تكاد تجمع آراء المفسرين على المراد من (الكلمات) فقيل هي مقدرته وحكمته وعجائبه[١٣]، وقيل هي:

١- ينظر: شرح ابن عقيل: ١٤./١

٢- المصباح المنير: ٥٣٩./٢

٣- ينظر: اللسان (كلم) ٥٢٢./١٢

٤- ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٦٢٦.

٥- ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١٤٢/١، والكشاف: ١٥٧./١

٦- الكشاف: ١٥٧./١

٧- السابق نفسه٢٤٠./٢

٨- ينظر: السابق: ٣٢٨/٤-٣٢٩.

٩- ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣٠٤./٢

١٠- اللسان (كلم): ٥٢٢./١٢

١١- ينظر: معجم الفروق اللغوية: ١٣٩، والتحقيق في كلمات القرآن: ١١٩./١٠

١٢- ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٦٢٠.

١٣- ينظر: مجمع البيان: ٤٥٢/٦، والميزان: ٣٠٣/٤.

الحجج والبراهين[١]، وقيل المراد بكلماته القدرة على إيجاد الكائنات متى شاء، ومع هذه المعاني المتقاربة اختلف المفسرون في المراد من الكلمات في آيتين من سورة البقرة، الأولى قوله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} (البقرة٣٧)، فسرت الكلمات باعتراف آدم وحواء بذنبهما[٢]، وهو قوله في سورة الأعراف: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}(الأعراف ٢٣)، وقيل هو دعاء لآدم عليه السلام[٣]، وقيل محاورة بين آدم وربّه[٤]، وقيل إنه سأله بحق فاطمة ومحمد والحسن والحسين(صلوات الله عليهم)[٥]، ونرجّح هذا القول لأمور عدة ؛ منها أن الله سبحانه وتعالى . كان قد علّم آدم الأسماء كلّها في آيات متقدمة على هذه الآية، وهذا يوافق معنى (التلقّي)، ومنها أنّ بعض المفسّرين أوردوا هذه الرواية باختلاف في النقل، فقد رواها ابن جرير الطبري، إلا أنه علّق عليها بقوله: ولا يصح أن نبي الله آدم توسّل إلى الله بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) أو بجاهه[٦]، كما ذكرها القرطبي بقوله: (و قالت طائفة رأى مكتوباً على ساق العرش محمّد رسول الله فتشفع بذلك)[٧].

وقد أجمع مفسرو الإمامية على هذه الرواية وعضدوها بأحاديث منقولة عن أهل بيت العصمة(عليهم السلام)[٨].

أما الآية الأخرى، فهي قوله تعالى: { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}(البقرة١٢٤) فسّرت الكلمات على ثمانية أقاويل[٩]:

أحدها: شرائع الإسلام ما ابتلى الله أحدا بهن فقام بها كلها غير إبراهيم (عليه السلام)، وهي ثلاثون سهماً[١٠].

والثاني: أنها خصال من سن الإسلام، خمس في الرأس وخمس في الجسد.

الثالث: انها عشر خصال ست في الإنسان وأربع في المشاعر.

الرابع: انها مناسك الحج خاصة.

الخامس: انها الخصال الست: الكواكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجرة، والختان، ابتلي بهن إبراهيم فصبر عليهن

السادس: رُوي عن النبي . صلى الله عليه وآله وسلّم إنه قال سُمّي بالخليل إنه يقول حين يصبح ويمسي {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} (الروم١٧- ١٨)

السابع: يُروى عن الرسول – صلى الله عليه وآله وسلّم . إنه قال: (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} (النجم٣٧) أتدرون ما وفّى؟ قالوا الله ورسوله أعلم، وفّى عمل يوم بأربع ركعات في النهار)[١١].

١- ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ .

٢- ينظر: تفسير الكاشف: ١٦٦/٥، ١٦٧./٦

٣- ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١٠٨/١، والكشاف: ١٢٣/١، ومواهب الرحمن: ١٨٣./١

٤- ينظر: المفردات في غريب ألفاظ القرآن: .

٥- ينظر: النكت والعيون في تفسير الماوردي: ١٨٢/١-١٨٥.

٦- ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٥٤٦./١

٧- ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣٢٤./١

٨- ينظر: على سبيل التمثيل: مجمع البيان: ٢٠٠/١، وتفسير الصافي: ١٢٠/١-١٢١، وتفسير الميزان: ١٤٣/١ وما بعدها، ومواهب الرحمن: ١٨٣./١

٩- ينظر: النكت والعيون في تفسير الماوردي: ١٨٢/١-١٨٥.

١٠- ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١٧٩/١، ومجمع البيان: ٣٧٨/١، والكشاف: ١٨٢/١. ١٨٣.

١١- ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن: ١٦/٣.

الثامن: محاورة بين إبراهيم وربّه، إن الله تعالى قال لإبراهيم: . إني مبتليك يا إبراهيم، قال تجعلني للناس إماما ؟ قال: نعم، قال: ومن ذريتي، قال: لا ينال عهدي الظالمين، قال: تجعل البيت مثابة للناس؟ قال: نعم، قال: وأمنا، قال: نعم، قال: وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، قال: نعم، قال: وتجعل هذا البلد آمنا، قال: نعم، قال: وترزق أهله من الثمرات مّن آمن، قال: نعم. فهذه الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم[١].

إذا ناقشنا هذه الأقاويل الثمانية نخرج بالآتي:

١- القول الأول لم نجد فيما بين أيدينا من التفاسير مَن ينص على أن من يقوم بهذه الشرائع فهي اختبار له، ويحتل بسببها مرتبة إبراهيم (عليه السلام).

٢- لا يجد أحد أن القيام بهذه الخصال هو اختيار يعلو بصاحبه مرتبة الأنبياء، نعم إنها سنة لإبراهيم ولمن بعده للنظافة والطهارة التي يحثّ عليها الإسلام.

٣- الثالث مرتبط بالثاني وبزيادة مشاعر الحج المعروفة للجميع.

٤- الأغلب الأعم من المسلمين يقومون بمناسك الحج على أحسن أوجهه وأتمها.

٥- تدرج الإنسان بالعبادة لا يعد محض ابتلاء، نعم الحرق، وذبح الولد والهجرة قد تكون اختبارا فعلياً لا يقوم بها إلا من اصطفاه الله.

٦- و٧- فيما روي عن النبي – صلى الله عليه وآله وسلّم – لا يمتّ إلى الآية التي نبحث فيها بل كانت الرواية تخص التسمية والتوفية.

٨- مَن ينعم النظر في هذه المحاورة يجد أن إبراهيم (عليه السلام) يملي شروطه على ربّه، والربّ يجيب بنعم.

إن الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم (عليه السلام) لابدّ أن تكون فوق العادة البشرية حتى يعلو صاحبها إلى خلة الرحمن وهذه مرتبة لا ينالها إلا مَن هانت عليه الدنيا ومن فيها. وإذا عدنا إلى الابتلاء؟، والإتمام نجدهما مشتركين عند إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) فصبر إسماعيل على ذبح تصديقاً لرؤيا أبيهن وقيام الوالد بالأمر على أحسن ما يكون يعد خرقاً لناموس الأبوة، والنبوة معاً، لذا طلب إبراهيم لذريته الإمامة بقوله: { قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} (البقرة١٢٤) والذرية المقصودة محصورة بإسماعيل (عليه السلام) لقوله: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} (إبراهيم٣٧) فالذرية هم النسل المتفرغ من إسماعيل وهم محمد وعلي وذريتهم من الإئمة المعصومين (صلوات الله عليهم أجمعين)[٢] وعن الصادق (صلوات الله عليه) قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم (عليه السلام) أنه قال: (ربّ أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين (صلوات الله عليهم) إلا تُبت عليَّ فتاب عليه، فقيل له يا ابن رسول الله فما يعني بقوله . عزّ وجلّ . فأتمّهنّ، قال: يعني أتمّهنّ إلى القائم اثني عشر إماماً تسعة من ولد الحسين . عليهم السلام)[٣].

١- ينظر: النكت والعيون في تفسير الماوردي: ١/١٨٣.

٢- ينظر: الرمز في قصة إبراهيم: ٥٩.

٣- ينظر: تفسير الصافي: ١/١٨٦-١٨٧.

المبحث الثاني

صيغة الفعل

اللافت للنظر في بحث صيغة الفعل من مادة (كلم) ان فعل الأمر لا وجود له في القرآن الكريم، وكان النصيب الأوفر للفعل المضارع فقد ورد في (١٧) موضعاً، أما الفعل الماضي فقد ورد في ستة مواضع.

الفعل المضارع

نعلم أن الفعل المضارع يدلّ على التجدّد كما يدلّ على الاستمرار والاستقبال، وهذا ما توضّحه الآيات المباركة ؛ قال تعالىعلى لسان مريم (عليها السلام): { إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا } (مريم٢٦)، و: {قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا} (آل عمران٤١)، ومثلهما: {قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا} (مريم١٠)، وقال تعالى: {قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} (مريم٢٩)، و: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ} (يس٦٥)، {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ}(آل عمران ٧٧).

ما ورد من آيات يدل على الحال والاستقبال ولا نحتاج فيه إلى دليل لإثباته، أمّا قوله تعالى: { وَلَا يُكَلِّمُهُمُ} فكناية عن عدم اعتناء الله بهم بالإعراض عنهم في يوم يكون الاحتياج إليه تعالى شديداً[١].

أمّا ما دلّ على الاستمرار فقوله تعالى: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} (آل عمران٤٦)، و{إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا} (المائدة ١١٠)، ما المعنى في الإخبار بكلامه (كهلاً) وذلك لا يستنكر؟ فيه جوابان:

الأول: إنه يكلمهم كهلاً بالوحي الذي يأتي من الله تعالى.

والثاني: إنه يتكلم صغيراً في المهد كلام الكهل في السّنّ.

والأرجح: (والله أعلم) إن صفة الكلام مستمرة عند عيسى (عليه السلام) من المهد إلى كهولته، قال الطبرسي في تفسير الآية: (أي في حال ما كنت صبياً في المهد وفي حال ما كنت كهلاً)[٢].

وقال الزمخشري: (يكلم الناس طفلاً وكهلاً معناه يكلّم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت في حال الطفولة وحال الكهولة[٣]، ولم نعهد أحداً ذكر أن عيسى (عليه السلام) قد انقطع عن الكلام إلى أن بلغ المبلغ المعهود لكلام الأطفال.

الفعل الماضي:

ورد ذكره في ستة مواضع دالة على المضي الحقيقي، قال تعالى: { مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}(البقرة ٢٥٣)، و: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} (النساء ١٦٤)، {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ} (الأعراف ١٤٣)، {فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} (يوسف٥٤)، {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أو قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى} (الرعد ٣١)، وليس بين أيدينا تعليق على هذه الأفعال لوضوح دلالتها.

بعد هذه الجولة في رحاب كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وصلنا إلى بداية نهاية هذه الجولة وخرجنا منها بنتائج نجملها بالآتي:

١- ينظر: النكت والعيون في تفسير الماوردي: ١/ ٣٩٤.

٢- ينظر: مجمع البيان.

٣- ينظر: الكشاف ٣٥٧/١.

- اختصاص كل مفردة بمعنى لا يشركها فيه غيرها فلفظ (كلمة) قد توسع إلى معانٍ منها الإيجاد (كن فيكون)، ومنها مجموع الأمور والنواهي الإلهية وجاءت بمعنى الوعد، وبمعنى مقالة الكفر، أو بمعنى مقالة الإيمان، إلى غير ذلك، لذا جاءت في سبعة وعشرين موضعاً توزعت على هذه المعاني.
- أمّا لفظة (كلام) فقد خصت بالإضافة إلى لفظ الجلالة في ثلاثة مواضع وإلى ياء المتكلم العائد إلى الذات الإلهية المقدسة في موضع.
- أمّا لفظ (الكلم) فقد خص في ثلاثة مواضع لما قام به اليهود من تحريف للكتب السماوية وموضع واحد اقترن بالعمل الصالح الذي يصعد إلى الله: { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} (فاطر ١٠).

وإذا جئنا إلى لفظة (كلمات) وجدناها تأتي لمعانٍ كثيرة، منها قدرة الله ومنها عجائبه، ومنها ما عُلّم به آدم وابتلي به إبراهيم وهي أسماء المعصومين الأربعة عشر (عليهم السلام).

- أمّا صيغة الفعل فقد جاءت منه صيغتا الماضي والمضارع ولا خلاف في هذه الصيغتين. أمّا فعل الأمر فقد خلا منه القرآن الكريم.

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- التحقيق في كلمات القرآن: المحقق العلامة حسن المصطفوي، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، طهران، ١٣٩٣هـ.
- تفسير الصافي: محسن فيض الكاشاني(ت١٠٩١هـ)، منشورات مكتبة الصدر، طهران . إيران (د.ت).
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري(ت٣١٠هـ)، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٣هـ.
- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار النشر: دار الشعب – القاهرة.
- الرمز في قصة إبراهيم: أحمد العبيدي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ١٩٩٨م.
- شرح ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله ابن عقيل (ت٧٦٩هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، ضبطه وصححه: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨هـ)، رتبه وضبطه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.
- لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- مجمع البيان لعلوم القرآن: أبو الفضل بن الحسن الطبرسي(ت٥٤٨ هـ)، مطبعة أمير، قم، ط٧ . ١٤٢٥هـ.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: أحمد بن محمد بن علي الفيومي(ت٧٧٠ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
- معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزء من كتاب السيد نور الدين الجزائري، مؤسسة النشر الإسلامي، ط٣ . ١٤٢٦هـ.
- المعجم المفهرس لألفاظ اقرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، مؤسسة جمال للنشر، بيروت . لبنان (د.ت).
- معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق إبراهيم بن السري، الزجاج (ت٣١١هـ)، شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: أبو عبد الله محمد بن هشام الأنصاري(٧٦١هـ)، خرج آياته وعلّق عليه: أبو عبد الله علي عاشور الجنوبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م.

- مواهب الرحمن في تفسير القرآن: آية الله العظمى السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري (قده)، مطبعة الديواني . ط٣ . ١٤٠٩هـ . ١٩٨٩م.
- الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة النشر الإسلامي، ط٧ . ١٤٢٣هـ.
- النحو الوافي: عباس حسن، دار المعارف، مصر.
- النكت والعيون في تفسير الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت٤٥٠هـ)، راجعه وعلّق عليه: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية (د.ت).